الأمثال في الكتاب العزيز

لمَّا كان الغرضُ من ضرب المثل: توضيحَ الغامض، وتقريبَ البعيد، وتجليةَ المعنى، من غير كَدٍّ للذهن، ولا إرهاقٍ للفكر، لذلك أكثرَ القرآنُ الكريمُ، من ضربِ الأمثال، ليدرك كلُّ سامع وقارىء، المعنى الذي قصَدَ إليه الكتابُ العزيز، من ذلك المثل، مع غاية الوضوح والبيان ولهذا وضَّحَ تعالى الحكمة من ضرب الأمثال، فقال في كتابه العزيز: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

أي ما يتَّعظُ بها، ولا يستفيدُ منها، إلَّا أهلُ (العلم والفهم) الراسخون في العلم، الذين يعقلون عن اللَّه عزَّ وجلَّ مراده، ويدركون بثاقب فهمهم معانيَه وأهدافه.

وممَّا تجدُر الإشارةُ إليه أن الغرضَ من التمثيل: هو التفكُّر في بدائع خلق اللَّه، وصنعه الحكيم، فما من ذرةٍ في الكون، إلَّا وهي ناطقةٌ بعظمة جلال اللَّه، وإبداع صنعه، وبالتفكر والتدبر، يدرك الإنسانُ تلك الروعة والجلال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أي ليتفكروا ويتدبروا معانيها ومقاصدها السامية، وهذه الآيةُ وردتْ في معرضِ الحديث عن القرآن، وعظمته، وعلوِّ شأنه، بحيث لو أن اللَّه أنزل القرآنَ على الجبل، فتدبَّر ما في القرآن العظيم، لخَشَع وتصدَّع ـ على قسوته وصلابته ـ من خوف اللَّه عزَّ وجلَّ، فكيف يليق بالبشر ألَّا يتأثروا به؟

قال الحسن البصري: في قول اللَّه تعالى في آية الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] قال رحمه اللَّه: «إذا كانت الجبالُ الصُمُّ، لو سمعتْ كلامَ اللَّهِ وفهمتْهُ، لخشعتْ وتصدَّعتْ من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم، وفهمتم كلامَ اللَّه عزَّ وجل!؟».

تنوُّعُ الأمثال في القرآن الكريم

إذا تدبَّرنا كتاب اللَّه العزيز، نجد القرآن الكريم قد نوَّع الأمثالَ بشكل عجيب، فمنها ما ضربه اللَّه تعالى للكفار، ومنها أمثالٌ عن المنافقين، ومنها أمثال ذُكرتْ عن الحياة الدنيا، وما فيها من متاع خادع، تشبه السَّرابَ، يحسبه الظمآنُ ماءً، ومن الأمثال ما يصوِّر به أعمالَ أهلَ الرياء والنفاق، حيث تذهب أدراج الرياح، لأنها لم يُقصد بها وجهُ اللَّه تعالى.

كما ضرب المَثَلَ للمؤمن، الذي يُنفق ماله طلباً لمرضاة اللَّه، بالزَّارع الذي يزرع الحبَّ، فتخرجُ كلُّ حبةٍ سبعَ سنابلَ، في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبة، وهكَذا تنوعت الأمثالُ في القرآن العظيم، حسب الأشخاص، والأقوال، والأعمال، وفي صورٍ عجيبة، تشمل (عبَدَةَ الرحمن) و(عَبَدَةَ الأوثان)، وكلَّ من سار في طريق الهدى، أو في طريق الضلال، كما سنبيِّنه في هذا الكتاب إن شاء اللَّه تعالى.!

روائع الحكم والأمثال في أساليب القرآن

يَجْدُرُ بنا ونحن نتحدث عن الأمثال في القرآن، أن نعرِّف تعريفاً موجزاً كلاً من (التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية) التي هي من أساليب الفصاحة والبلاغة، والتي اختصَّتْ بها اللغةُ العربيةُ (لغةُ الضَّاد) ونزلَ القرآنُ الكريم ـ خاتمة الكتب السماوية ـ بهذه اللغة الفصحى، أشرف اللغاتِ وأبدعِها، كما قال جلَّت عظمتُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥] ومن المعلوم أن القرآن معجزٌ في بيانه، كما هو معجز في تشريعه، وأحكامه، وفي أخباره الغيبيَّة، وأَخَصُّ معجزاته **(المعجزة البيانية)** التي عجز عنها البشر جميعاً، مع التحدّي الصَّارخ الذي تحدَّاهم به القرآن.!

ما هو التشبيه؟

هو: تمثيلُ شيءٍ بشيء، اشترك معه في صفةٍ من الصفات، والغرَضُ منه تقريبُ البعيد، وتوضيحُ الغامض، وتجليةُ المعنى بأوضحِ صُوَرِ الإبداع والبيان، مثلُ قولنا: كلامُه كالشَّهْد ـ أي العسل ـ في الحلاوة، وقول الشاعر:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإن تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

ووصف أعرابيٌّ رجلاً فقال: (كأنه النَّهارُ الزاهر، والقمرُ الباهر، لا يخفى على كل ناظر) **وأدواتُ التشبيه**: هي (الكافُ، وكأنَّ، ومِثْل، وشِبْه، وشبيه) **قال تعالى**: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] شبَّه قلوب اليهود في قسوتها وغلظتها، بالحجارة الصلبة، لا تلين لنصحٍ ولا تذكير، وقال الشاعر:

أَنَا كَالمَاءِ إنْ رَضِيتُ صَفَاءً ... وَإِذَا مَا غَضِبْتُ كُنْتُ لَهِيبَا

وقال سبحانه عن مشركي مكة ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ *

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]. شبَّههم في إعراضهم عن القرآن، ونفورهم من رسول اللَّه ﷺ بالحُمُر الوحشية، ترى الأسدَ، فتفرُّ وتَهرُب منه، من شدة الخوف والفزع. قال أبو تمَّام في مغنِّية تغنِّي بالفارسية:

فَبِتُّ كَأَنَّنِي أَعْمَى مُعَنَّى ... يُحِبُّ الغَانِيَاتِ وَلَا يَرَاهَا

المُعَنَّى: الحزينُ المتعب، **وقال أحد الشعراء**:

تَقَلَّدَتْنِي اللَّيَالِي وَهْيَ مُدْبِرَةٌ ... كَأَنَّنِي صَارِمٌ فِي كَفِّ مُنْهَزِمِ

شبَّه نفسه في إفلاسه، وإعراضِ الدنيا عنه، بالسيف القاطع في يد الرجل المهزوم.

ما هو التمثيل؟

أمَّا التمثيلُ، والمَثَلُ، والمِثْلُ، فهو في القرآن العظيم كثيرٌ، مستفيض، قال اللَّه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] **وقال سبحانه**: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. **وقال تقدست أسماؤه**: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وسيأتي توضيح هذه التشبيهات والأمثال، وما فيها من الإبداع البيانيِّ، في مواطنها إن شاء اللَّه من هذا الكتاب، أمَّا بقيَّةُ أدوات التشبيه فالأمثلةُ عليها كثيرة.

أقسامُ التشبيه

ينقسم التشبيه إلى عدة أقسام هي كالآتي:

١ ـ **التشبيه المرسل**: هو التشبيهُ الذي تُذكر فيه أداةُ التشبيه، كقولنا: وجهه كالقمر في الحسن.

٢ ـ **التشبيه المؤكَّد**: التشبيهُ الذي حُذفت منه الأداة، كقولنا: هو البحر في الكرم.

٣ ـ **التشبيه المجمل**: ما حُذف منه وجهُ الشَّبه، مثل: هذا الطعام مُرٌّ عَلْقَم.

٤ ـ **التشبيه المفصَّل**: ما ذُكر فيه وجهُ الشَّبه، كقول المتنبيِّ:

(نَحْنُ نَبْتُ الرُّبا وأنت الغمامُ) أي كالسحاب الذي يُغيث الأرض.

٥ ـ **التشبيه البليغ**: ما حُذف منه وجهُ الشَّبه وأداةُ التشبيه، مثل: عليٌّ أسدٌ، ومحمدٌ بدر، أي عليٌّ كالأسد في الشجاعة، ومحمد كالقمر في الحسن، ومن هذا النوع قولُه تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي هم كالصُّمِّ لا يسمعون من يدعوهم إلى الخير، وكالخُرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعُمْي لا يبصرون طريق الهدى والنجاة.

ويجب أن يكون وجهُ الشَّبه، أقوى وأظهر في المشبَّه به، منه في المشبَّه.

التشبيه المقلوب

٦ ـ **وهناك نوع من التشبيه، يسمى (التشبيه المقلوب)** وهو أن نَضَع (المشبَّه به) مكان (المُشَبَّه) وذلك بادِّعاء أن وجه الشَّبه فيه، أقوى وأظهر، كقولهم: البحرُ عطاؤه، والقمرُ وجهُه، أصلُه: عطاؤه كالبحر في الكرم والسخاء، ووجهُه كالقمر في الحسن والبهاء، فقلَبَ الكلامَ فجعل البحرَ على سعته كجزءٍ من كرمه، وجَعَل القمرَ في حسنه، كجزءٍ يسيرٍ من بهائه وجمال وجهه، وعلى هذا الإبداع، جاء قولُه تعالى عن المشركين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥] والأصلُ في الكلام أن يشبِّهوا الربا بالبيع، فيقولوا: الربا كالبيع، يكون بالتراضي فلماذا يكون حراماً؟ فعكسوا الأمرَ، وقلبوا الكلامَ، فقالوا: البيعُ مثلُ الربا، كأنهم جعلوا الربا أمراً مقطوعاً بحلِّه، فقاسوا عليه البيعَ، ولذلك ردَّ اللّه عليهم، فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ لما فيه من تبادل المنافع بين البائع والمشتري ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ لما فيه من المخاطر والأضرار الجسيمة التي تلحق بالاقتصاد الماليِّ، بحيث يغدو الإنسان كالوحش المفترس، همُّه جمعُ المال، وامتصاصُ دماء الآخرين، أناسٌ يكدُّون ويتعبون، وآخرون يجنون ثمرة جهد غيرهم على برد الماء.

ومن التشبيه المقلوب قولُ الشاعر:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ ... وَجْهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

والأصلُ في التشبيه أن يقول: إنَّ وجهَ الخليفة يشبهُ نور الصباح، ولكنه

عَكَس وقَلَب للمبالغة، فجعل أنوارَ الصباح، تشبه في الضياء وجهَ الخليفة، وهذا من مظاهر التفنُّن والإبداع.

التشبيه التمثيلي

٧ ـ **وهناك التشبيه المسمى بـ (التشبيه التمثيلي)** وهو: أن يكون وجهُ الشَّبَه فيه، ليس مفرداً وإنما هو متعدِّدٌ، ولهذا يقول علماء البلاغة: هو ما كان وجه الشَّبه صورةً منتزعةً من متعدِّد، كقول الشاعر:

إنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ فِي الصِّبَا كَالعُودِ يُسْقَى المَاءَ فِي غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقَاً نَاضِرَاً بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فليس وجهُ الشبه هنا مفرداً، إنما هو صورةٌ منتزعةٌ من متعدِّد، وهو تشبيهُ أَدَبِ الطفل في الصغر، بالنبات والأغصان، التي تُسقى بالماء، فتكبر وتثمر وتُورق، وتصبح خضراء زاهية، بعد أن كانت يابسة. وكقول البوصيري في الصحابة:

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبَا مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

يُشبِّهُ ثباتَهم على ظهور الخيل، كأنهم نباتٌ غُرِسَ على رؤوس الهضاب، فزكا واشتدَّ ونما، من قوة حزمهم وشجاعتهم، لا من إحكام ربطِ الأحزمة على ظهور الخيل. وهذا (التشبيهُ التمثيليُّ) وَرَدَ كثيراً في القرآن الكريم، بصور بديعة من صور البيان، **اقرأ قوله تعالى مثلاً**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] وتمعَّنْ **قوله سبحانه**: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: ٢٠] **وقوله جلَّ ثناؤه**: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: ٢٦١] فوجهُ الشبه فيها ليس مفرداً، إنما هو صورة منتزعةٌ من متعدِّد، يوضّح جمالها الباهر، وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً، في مكانها من هذا الكتاب إن شاء اللّه.

الغرض من التشبيه

أمَّا الغَرَضُ من التشبيه: إمَّا المدحُ، وإمَّا الهجاءُ، وإمَّا توضيحُ وصفه، وبيانُ حاله. **فالمديحُ** كقول النابغة في الخليفة (عبد الملك بن مروان):

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إذا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

والهجاء كقول المتنبيّ عن شخصٍ متحدِّثٍ ثقيل الظلِّ:

وَإِذَا أَشَارَ مُحَدِّثاً فَكَأَنَّهُ ... قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

أمَّا بيانُ الوصف والحال، فكقول بعض الناصحين: (العلمُ بلا عملٍ، كالشجرة بلا ثمر) و(العلمُ في الصغر، كالنقش على الحجر) وقالت الخَنساءُ في أخيها (صخر) ترثيه:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

عَلَمٌ: يعني جبل، شبَّهته بجبلٍ عالٍ أُشعلت على قمته النار ليراها المسافرون. وقال بعض الشعراء، يصف نفسه في حال الرضى، وفي حال الغضب:

أَنَا كَالمَاءِ إِنْ رَضِيتُ صَفَاءً ... وَإِذَا مَا سَخِطْتُ كُنْتُ لَهِيبَا

يصف نفْسَه مفتخراً بأنه كالماء السلسبيل في حال الصفاءِ والرضى، وكالنار الملتهبة في حال السخط والغضب.

(بين الحقيقة والمجاز والاستعارة)

حينما نتكلم عن لفظٍ من الألفاظ، المعروفة عند البشر، مثل اسم (الأسد) و(البحر) و(الجبل) يتبادرُ إلى أفهام الناس، الحقيقةُ التي يعرفونها، فالأسدُ اسمٌ للحيوان المفترس، والبحرُ اسمٌ للماء الذي تجري فيه السفنُ، والجبلُ اسمٌ للشاهقِ المرتفع من الأرض، ولكن عندما نقول عن رجلٍ جريء، يقارع الأبطالَ ويغلبهم: إنه أسدٌ، فلا نقصد به السَّبُعَ المتوحِّشَ، الذي يفترسُ بأنيابه، إنما نقصد به الرجلَ الشجاع، الذي يشبه الأسدَ في قوَّته وشجاعته، وعندما نطلق على إنسان، واسع العلم والمعرفة ونقول: إنه بحرٌ متلاطمُ الأمواج، فلا نقصد به البحر الحقيقي، إنما نشبِّهه بالبحر في سعة العلم والاطلاع، كما اشتهر ابنُ عباس: بأنه (الحَبْرُ البحرُ) أي أعلمُ النَّاسِ بفهم الكتاب العزيز.

ومن هنا تفاوتَ الأدباءُ والفصحاءُ في بلوغ أعلى المراتب، بمقدارِ ما لديهم من مَهارةٍ فائقة، في التعبير عمَّا يجولُ في صدورهم، من وصفٍ رائقٍ بديع، يسكبونه في عباراتٍ فاتنة، تَسْبي المشاعرَ والألبابَ، خُذْ مثلاً قولَ المتنبِّي، وقد رأى ممدوحه وعانقه:

فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَحْرُ نَحْوَهُ ... وَلَا رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

قَصَد ممدوحَه، الذي شبَّهه بالبحر، في الكرم والسخاء، وأراد بالأُسْد الرجالَ الشجعانَ الذين قامُوا لمعانَقَته، لأن من المستحيل أن يعانق الأسدُ الإنسان، بل يفترسه ويبلعه، فهذا الإدِّعاءُ جاء من استعمال اللفظ في غير حقيقته، بتشبيه الكريم بالبحر، والشجعان بالأسود ـ لعلاقةِ المشابهة ـ لأن البحرَ لا يمشي، والأسودُ لا تُعانقُ البشرَ، وهذا ما يُسمَّى عند علماء البلاغة بـ(الاستعارة) وهي ضربٌ من ضروبِ فصاحةِ الكلام، وروعةِ البيان.!

استمعْ معي إلى بعض هذه الروائع، في خطبة (الحجَّاج) وقد أرسله الخليفة (عبد الملك بن مروان) والياً على أهل العراق، بعد أن اشتدَّ شقاقُهم وخلافُهم على بيعة الخليفة، وزاد تمرُّدهم على جميع الولاة، فرماهم بالحجَّاج والياً عليهم فقال لهم: (يا أهلَ العِراقِ، يا أهلَ الشِّقاق والنِّفاق، إني لأرَى رؤوساً قد أينعتْ، وحانَ قِطَافُها، وإني لصاحبها) شبَّه الرؤوس بالثمرات، التي تكون على الأغصان، وقد نَضِجَتْ وأينعتْ، وحانَ وقتُ قطفها، وحَذَف المشبَّه به، وهي الثمار الناضجة، ورَمَزَ لها بشيءٍ من لوازمها، وهي (أَيْنعتْ) لأن النُّضْجَ إنما يكون للثمار، لا للرؤوس، على طريقة (الاستعارة المكنيَّة) وهي من روائع أنواع الاستعارة.

والقرآنُ الكريم مليءٌ بأمثال هذه الوجوه البلاغية، باستعمال التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، لأنه نزل بلغة العرب، وبالأساليب التي يتخاطبون بها، فأعجزهم بأسلوبه الرائع المبين، استمعْ إلى قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١] فإن الظاهرَ المتبادرَ، أن الناس كانوا في ظلام دامسٍ من الليل، فأخرجهم إلى نور النهار الوضَّاء، وهذا المعنى غيرُ مراد، فالظلماتُ والنورُ لا يُقصد بالأولى إلَّا الضلالُ، ولا يُراد بالثانية إلَّا الهدى والإيمانُ، فالمعنى الصحيح المقصود من الآية: لتخرج البشرية، من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، ففي الآية (استعارةٌ تصريحية) شبَّه الكفرَ بالظلمات، والإيمانَ بالنور، ثم حَذَف الكفر واستعار له لفظ (المشبَّه) وهو الإيمانُ ليقوم مقامَه، بادِّعاء أن المشبَّه به، هو عينُ المشبَّه، وهذا أروعُ في البلاغة، وأبدعُ في البيان، ومن هنا جاءت معجزةُ القرآن، حيث عجز العرب، بل البشر جميعاً أن يجاروه في فصاحته وبيانه.

ما هي الاستعارة

تعريف الاستعارة: الاستعارةُ تشبيهٌ حُذف أحدُ طرفيه (المشبَّه) أو (المشبَّه به) فعلاقتُها المشابهةُ دائماً، وهي من أنواع (المجاز اللغوي) أي الانتقال من المعنى الظاهر، إلى المعنى الحقيقي المقصود، وهي قسمان:

الأولى: **(استعارة تصريحية)** وهي: ما صُرِّح فيها بلفظ (المشبَّه به).

الثانية: **(استعارة مكنيَّة)** وهي: ما حُذف فيها المشبَّه به، ورُمز له بشيءٍ من لوازم معناه، قال اللَّه تعالى في كتابه العزيز بالوصية بالوالدَيْن ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] أي تواضعْ لهما بتذلُّل وخضوع، من فرط رحمتك وعطفك عليهما.

لقد جاء التصوير في الآية، في أبدع (صور الاستعارة) والجمال، فقد شبَّه التذلُّلَ والتواضعَ لهما، بطائرٍ له جناحان، فإذا طار فتح جناحيه ونَشَرهما، وإذا أراد التوقُّفَ عن الطيران، قَبَض جناحيه إليه، فشبَّه شدَّةَ التواضع لهما بقبضِ الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح، بل أضافه إلى الذُلِّ ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ ليشعره بالانكسار والخضوع التامِّ بين يديهما، كأنه جناح مكسورٌ لِذُلِّه، وليس هذا الذُلُّ، عن مهانةٍ في النَّفْس، إنما هو عن محبَّةٍ ورحمة، ولهذا قال بعده: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ تكميلاً للمعنى، لإشعارهما بفيض التوقير والمحبة، فما أسمى وأبدع هذا التعبير القرآني، الذي سَمَا بهذه (الاستعارة) إلى أوْجِ الفصاحةِ والبيان!!

وسرُّ بلاغة الاستعارة: أنَّ تركيبَها يدلُّ على تناسي التشبيه، وتخيُّلِ صورةٍ جديدة، تُنسي رَوْعتُها ما تضمَّنه الكلامُ، من تشبيهٍ خفيٍّ مستور، استمعْ إلى قول اللَّه جلَّتْ عظمتُه في وصف نار جهنم ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] بمجرَّد تلاوتها والإمعان فيها، ترتسم أمامَك نارُ الجحيم، في صورة شخص، ضخم بطَّاش، مكفهرِّ الوجه، عابسِ الجبين، يَغْلي صدرُه حِقداً وغيظاً، تكادُ تتقطَّع نَفْسُه من شدة الغضب على أعداء اللَّه، والآية في الحقيقة تمثيلٌ لشدَّة اشتعالها بهم، حتى كأنها إنسانٌ يكاد يتمزَّقُ، من الغيظ الكظيم، وهي تتلهَّفُ على شفاءِ غليلِها، من الكفرة المجرمين، فالروعة هنا في الآية من حيثُ الابتكارُ، وروعةُ الخيال، ولهذا كانت (الاستعارة) أبلغَ من التشبيه البليغ، ومجالُها فسيحٌ للإبداع، وتسابقِ فُرسان الكلام.

الاستعارة التمثيلية

عرَّف علماءُ البلاغة (الاستعارةَ التمثيلية) بأنها تركيبٌ استُعمل في غير ما وُضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ، من إرادة المعنى الأصليِّ، **يقول العرب في أمثالهم**: (أنتَ ترقمُ على الماء) ويقولون: (أنتَ تنفخُ في رَمَاد) يُقال هذا لمن يُلِحُّ في الحصول على أمرٍ مستحيل، لا يمكن الحصولُ عليه، بحالٍ من الأحوال، كمن يكتب على الماء رسالةً من الرسائل، وكمن ينفخ في الرَّماد ليشعل النَّارَ، وقد انطفأ كلُّ ما فيها من جَذْوة. !

ولا بدَّ في الاستعارة التمثيلية، أن يكون كلٌّ من المشبَّه، والمشبَّه به، صورةً منتزعةً من متعدِّد، كقول بعض الأدباء عن شخصٍ مجاهد، عاد إلى وطنه منتصراً على أعدائه، بعد سفر طويل: (**عادَ السيفُ إلى قِرَابه، وحلَّ اللَّيثُ منيعَ غابِه**) الليثُ: الأسد.

شبَّه الرجلَ الذي خرج غازياً في سبيل اللَّه، ثم عاد منتصراً، بالسيف الذي استُلَّ للحرب والقتال، حتى إذا ظفر بالنصر، عاد إلى غِمده، والغِمْدُ بيتُ السيف، وغلافُه الذي يُوضع فيه، وشبَّهه أيضاً بالأسد الهَصُور، الذي يصولُ ويجولُ في الغابة، باحثاً عن فريسته، ثم يرجع إلى مسكنه الآمن، وقد نالَ كلَّ ما يبحث عنه ويشتهيه.

ومن هذا النوع التمثيلي البديع، قولُ المتنبيِّ عمن لم يُرزق الذَّوقَ، في فهم الشعر الرائع:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا

شبَّه الذين يعيبون شعرَهُ لفسادِ ذَوْقِهم، بالمريضِ الذي يُصاب بمرارةٍ شديدة في فمه، تجعله يمجُّ الماء الحلوَ العذبَ، ويجده مُرّاً غيرَ مستساغ، وما هو إلَّا من مرارةِ فمه، وفسادِ مزاجه. !

واستمع معي الآن إلى هذه الروعة البالغة في آي الذكر الحكيم، حيث يقول ربُّ العزة والجلال عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. أي زرعتُ محبتك في القلوب، بحيث لا يصبر عنك من رآك، حتى أحبَّك فرعونُ.

والتعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ بالغُ الروعة في الإبداع، حيثُ

مثَّل له بملكٍ عظيم، بُنيَ له قَصْرٌ فخمٌ ضَخْمٌ، تحت سَمْعِهِ وبَصَرِه، فجاء في غاية الحُسْن والجمال، هل ترى أبدع وأروعَ من هذا التمثيل، ومن هذا التصوير الفنيِّ البديع، للرعاية والحماية التي أحاط ربُّ العِزَّة والجلال بها نبيَّه (موسى) الكليم، عليه أفضلُ الصلاة والتسليم؟ فما من مخلوقٍ بقدرته ـ مهما أُوتي من روعة البيان ـ أن يأتي بمثل هذا التصوير البديع (الصنع على عين اللَّه) لتشبيه الحَنَان والرعاية، التي نالها موسى عليه السلام، بطريق (الاستعارة التمثيلية البديعة)

تعريفُ الكناية

عَرَّف علماءُ البيان الكناية بأنها (لفظ أُطلِقَ وأُريد به لازمُ معناه، وبعبارة أخرى تركُ التصريح بذكر الشيء، إلى ذكرِ ما يلزمُه) كقولهم: (فلان نقيُّ الثوب) يعنون أنه إنسانٌ شريفٌ، لا يرتشي، ولا يصدر منه ما يدنِّس كرامته.

وكقول الشاعر: (المجدُ يمشي في ركابه) كَنَى به عن العزة والشَّرف، وفي الذكر الحكيم: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] كنى به عن الحسرة والندم، وقال تقدست أسماؤه: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦] كَنَى به عن الجِمَاع، ومثلُها قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] الرَّفثُ: كنايةٌ عن الجماع.

قال ابن عباس: (أراد تعالى بالرَّفث: الجماعَ، ولكنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حليمٌ، كريمٌ، يَكْني) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٤، ومعنى يَكْني أي يأتي بالكناية، بدل اللفظ الصريح، وهذا من الآداب القرآنية الرفيعة.

ولا نجد في القرآن العظيم كلمةً نابيةً، أو كلمةً قبيحة، وردت بلفظها الحقيقي، دون أن تُذْكر بطريق (الكناية) وبخاصة ما يتعلَّق بالعلاقات الجنسية، فإنها كلُّها وردتْ بالكنايات، بلفظ (الملامسة، أو المساس، أو التغشية، أو المباشرة، أو الحرث، أو الإفضاء) اقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] أراد بالمسِّ الجماع، وقوله جلَّ ثناؤه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي واقَعها، وقوله سبحانه: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] عبّر عن الجماع بالمباشرة لتعليمنا الأدبَ في الحديث، واستمع إلى قوله تقدست أسماؤه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] شبههنَّ بالأرض التي تُزرع

ويُلقى فيها الحبُّ، واقرأ قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقولَ اللّه تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] كلُّها تعني (المعاشَرةَ الزوجيَّةَ) وهذه من أوضح مزايا الكناية، وهي التعبيرُ عن القبيح الذي لا يحسن ذكرُه، باللفظ اللطيف الذي تستسيغ الآذانُ سماعَه، وأمثلةُ ذلك كثيرةٌ جداً في القرآن الكريم.

اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] قف معي لحظةً أمام روعة التعبير المعجز، وهو قوله سبحانه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فقد أشار بهذه اللفتة البديعة، بطريق (الكناية) إلى أنَّ من أكلَ الطعامَ، وشربَ الشرابَ، يحتاج إلى إخراج الفضلات (البولُ، والغائطُ) ولمَّا كان ذكرهما قبيحاً، أورده بالكناية بهذا التعبير البديع، وبأسلوب العرب، فقد كانوا لا يعبِّرون عمّا لا يحسن ذكره إلّا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم وحرصهم على العِرْض والشرف، يَكْنون عن المرأة (بالبيضة) و(الشاة) و(النَّخْلة)، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩] شبَّههن بالبيض المكنون أي اللؤلؤ المستور في أصدافه. **وقال الشاعر:**

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ

كَنَّى بالنخلة عن (المرأة التي يحبُّها)، وهذه من بدائع الكنايات.

ويقولون في وصف الكريم: (فلانٌ كثيرُ الرَّماد) وهو كنايةٌ عن الكرم، لأن كثرةَ الرَّماد تدلُّ على كثرةِ الطبخ، وكثرةُ الطبخِ تدلُّ على كثرةِ الضيوف، وكثرةُ الضيوف عنوانُ السخاء والكَرَم.

ويقولون عن البليد: (عريضُ القفا) أي غبيٌّ سيِّئُ الفهم، وعمن يجاهر غيره بالعداوة (لَبِسَ له جِلْدَ النَّمر) و(قَلَب له ظَهْرَ المِجَنِّ) وكلُّها كنايات بديعة عمن انقلب عن الصداقة إلى العداوة، ويقولون عن المُزاح الثقيل: (إنه رسولُ الشرِّ).

وقالت امرأةٌ لبعض الولاة (أشكو إليك قلَّة الفئرانِ) وهي كنايةٌ عن فراغ بيتها من الطعام، حتى عادت الفئران لا تأوي إلى منزلها، فقال لعمَّاله: املأوا بيتَها حبًّا، وسَمْناً، وزيتاً.!

وبإيجازٍ فإن الكناية مظهرٌ من مظاهر البلاغة، وغايةٌ لا يصل إليها، إلَّا من لَطُف طبعُه، وصفت قريحتُه، وتذوَّقَ أساليبَ البيان، والسرُّ في بلاغتها أنها تعطيك الحقيقةَ مصحوبةً بدليلها، وتضعُ لك المعاني في صور الأشياء المحسوسة، وهذه من خصائص الرسَّام المبدع، الذي يرسمُ لك صورةً للأمل، أو اليأس تَبْهَرك، وتجعلك ترى ما كنت عاجزاً عن التعبير عنه، واضحاً ملموساً، استمِعْ إلى قول الشاعر، وهو ينفحك ببيانه العذب:

عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

المجاز اللغوي

تعريف المجاز: وأمَّا (المجازُ اللغويُّ) عند علماء البلاغة، فقد قالوا: إنه اللفظ المستعملُ في غير ما وُضع له لعلاقة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقي.

والعلاقةُ قد تكون المشابهةُ، وقد تكون غيرها، كقول الشاعر: (بِلَادِي وإن جَارَتْ عليَّ عزيزة) فإن البلاد لا تجورُ، وإنما يجور ويظلمُ أهلها، وكقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فإن القرية لا تُسأل، وكذلك الإبل لا تُسأل، إنما يُسألُ أصحابُها وأربابُها.

وبعد هذا الحديث عن (التمثيل، والاستعارة، والكناية، والمجاز، والتشبيه) نبدأ بذكر نماذج، استعملها القرآن الكريمُ، بأسلوبه المبدع، وبيانه المعجز، فنتناول بعض هذه الآيات الكريمة، على ضوء ما عرفناه من أساليب العرب، في مخاطباتهم ومحادثاتهم.

وعلى هذا المنوال في الأسلوب والحديث، جاءت آيات الذكر الحكيم، تخاطبهم بما يفهمون ويعرفون ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فنقول مستمطرين رحمة اللّه، مستمدِّين منه العون والتوفيق.